الأديب والدولة والمجتمع

بقلم عبد الحليم عباس

يحفل الاديب العربي – في الوقت الحاضر – من حديث هذه الواجبات التي له ، او التي يصور البعض انها له في ذمة الدولة يقتضيها الوفاء سدادها والقيام بها ، والا كانت متجنية على الادب ، ظالمة لأهله .

يحفل الاديب منها على الرغم من أن الادب العربي القديم يجلوها له على احلى صورة وافتن منظر ، فهي حيناً جوارٍ وجواهر ، وهي حيناً آخر ، فضة وذهب ، وارضون وقصور ، وخيول مطهمة ، ودواب فارهة ، وما شاء الحظ وما شاءت ساعة رضى السلطان .

واذا ما اردنا ان نتعرف على اسباب هذه النفرة التي يلقى بها الاديب العربي حديث هذه الواجبات ، فسبيلنا الى ذلك ان نبحث في هذه الصلة التي كانت قائمة بين الأدباء والشعراء منهم بوجه خاص، وبين رجال الدولة في العصور العربية القديمة .

لقد كان رجال الدولة ، وفي مجتمع كالمجتمع العربي القديم ، باشد الحاجة الى عون الأدباء ليثبتوا لهم الأمر ، ويلموا من حولهم الاتباع والانصار ، فهم اداة التعبير التي لا يستغني عنها حاكم او ذو سلطان . ففي عصري القوة ، الأموي والعباسي مثلاً ، لم يكن الامر خالصاً للأمويين او العباسيين ، وانما كانت هنالك طوائف من الناس ، ترى ان الحق في الملك والسلطان لغير هذين البيتين ، وكانت بسبب ذلك تثور الفتن ، وتراق الدماء ، واذا ما هدأت الغائرة ، وسكنت الفتنة اقبل الناس – الذين هم قوام المجتمع – على بعضهم يتساءلون لمن الحق ، ومن هي الفئة الباغية ، وهنا يجيء دور الادباء ، كل يبرر ان اصحابه على الحق وان من عداهم هم اهل البغي والعدوان .

وقد يهون الامر ، لو ان ما ينطق به هؤلاء الادباء ، وما يجيء في اشعارهم وآثارهم كان هو الشيء الذي يعتقدون ، فهم هنا اصحاب فكرة يدافعون عنها ، مهما كان مقدار الخطأ والصواب فيها ، فلا خوف ولا ضير منها ما دامت غير متأثرة الا بضمير قائلها ، ولكنهم كانوا يقولون ما لا يعتقدون ، ويروجون للرأي الذي لا يرتأون .

يطلب أبان الشاعر ، من أصحابه البرامكة – وقد كان علوي الرأي والهوى – ان يوصلوه الى الرشيد ليأخذ كما يأخذ غيره من الشعراء الذين يترددون على بابه ، فيقولون له ولكنك لا ترى رأي اولئك الشعراء فلا تهجو العلويين ، ولا تشنع عليهم ، فيستغفر الله ، ان يقترف هذا الاثم . ولكنه في اليوم التالي ، يغدو عليهم ، بقصيدة يشجب فيها دعوى العلويين في طلب الخلافة ، ويقول بملء صوته ، دونما وازع من حياء او دين :

نشدت بحق الله من كان مسلماً … أعم بما قد قلته العجم والعرب
اعم رسول الله اقرب زلفة … اليه ام ابن العم في رتبة النسب
وايهما اولى به وبعهده … ومن ذا له حق التراث بما وجب
فان كان عباس احق بتلكم … وكان علي بعد ذاك على سبب
فابناء عباس هم يرثونه … كما العم لابن العم في الارث قد حجب

وقد باعد الزمن بيننا وبين الحماسة للعباسية والعلوية ، وما اليهما، غير اننا ان لم نستهول لهذا البعد الاثم الذي في القصيدة فاننا ولا شك نستهول كيف يهون الرأي على صاحبه الى هذا الحد ، فينسى رأيه ، وينسى معه خلقه وانسانيته ، فيقول الشيء الذي لا يعتقد ، ويثني على ما حقه عنده الهجاء .

هذا مثل واحد وليس – أبان – بدعاً في الشعر العربي ، وانما هو كل الشعراء الا من رحم ربي ، وقليل هم . بل لقد بلغ الامر عند الشعراء الكبار ، ان يثنوا الثناء الذي ما فوقه ثناء على شخص بعينه ، ليعودوا اليه بعد ذلك ،فيلصقوا به كل نقيصة يتعفف المرء عن ذكرها ، وكل ذلك والشخص لم يتبدل ولم يتغير ، وانما الذي تبدل وتغير العطاء ، اوالواجب الذي للشاعر عند صاحبه ، فقد منع ومن حقه ان يعطي ، او قلل ومن حق الشاعر ان يجزل فيه ، يفعل كل هذا الشاعر الكبير ولا يرى فيه اثماً او حرجاً . بل هو يذكر لك دونما مواربة او حياء ان العطاء هو السبب في ذلك ، كأنما يراه العذر الذي يفي بكل هذا الذي يصنعه .

هذا طرف من حديث

> **« ليس لنا عند الدولة من حق ، غير الحقّ الذي نحقّقه نحن ، والواجب الذي نأخذه ، شاءت ام ابت ، وهو الحرية والاستقلال الفكري . الحرية في ان نقول ما نشاء ، وان ندعو الى الرأي الذي نرى ، مستقلين غير متأثرين إلا بما نعتقد انه الحق ... واذا ابت الدولة بعد ذلك إلا ان تساعد الادب ، فلها ان تفعل ذلك وتقوم به كما تقوم باي عمل اجتماعي آخر ، لا تُطالب ولا ينبغي لها ان تطالب حتى بالشكر ، لأن هذا واجبها والسبب في وجودها . »**

الواجبات والصلات التي كانت تقوم بين رجال الدولة والادباء وهي صلات عادت بالخير على الادباء ، ووفرت للكثير منهم الحياة المنعمة ولكنها بذاتها جارت على الادب ، وكان من آثارها هذا التراث الضخم من شعر الفحش والنفاق ، والذي لا مثيل له في وفرته، وبعده من الصدق في آداب الامم الاخرى.

ولا شك ان الوضع الاجتماعي والاقتصادي السائد في الدول العربية ، على اختلاف اسمائها وعصورها ، هو الذي حمل الاديب على سلوك هذا الدرب ، فلم يكن من الممكن ان يعيش الاديب العيشة التي تساعده على ان ينتج ادباً ، الا اذا استظل في ظل امير او وزير ، او بيت ذي ثراء ، فقد كان القارئون قلة وكانت هذه القلة بين هذه الطائفة المنعمة صاحبة الامر والغنى ، فكلما كانت هي مضطرة الى الادباء ليساعدوها على الحق او الباطل ويذبون عنها الخصوم ، ويجمعون حولها الانصار ، كان اولئك الادباء مضطرين ايضاً الى السعي اليها ليعيشوا العيش الرخي . فلقد كانت مقاليد العيش بيدها إن شاءت اعطت وإن شاءت منحت ، وعدم العطاء يعني ان يعيش الشاعر العيش الانكد ، وما من اديب عربي اختار برضاه هذا العيش ، حاشا أبا العلاء المعري .

كان الادباء مضطرين الى هذا ، بحكم هذا الوضع ، فمن قصرت به الاداة او كبا به الحظ كما يحلو لادباء ذلك الزمان ان يقولوا ، عن اللحاق باهل الجاه والثراء قعد يندب حظه ، ويشكو زمانه بل يفعل اكثر من ذلك، يغدو عليهم متذللا، يشير الى بضاعته وانها من الصنف الجيد ، الذي لا يقل قيمة وجودة عن هذه الاصناف التي يجزلون لها الثمن .

وما اكثر هؤلاء الادباء الباكين الشاكين في الادب العربي ، والذين يقال عنهم انهم الطائفة التي ادركتها حرفة الأدب . وكلنا يعرف ان هذه – الحرفة – كانت تعني عند ادبائنا في مطلع نهضتنا هذه الفقر ، وان الاديب من صفاته ومستلزماته البؤس والفاقة ، ان لم يتداركه ، ويأخذ بيده ذو جاه او سلطان . فلقد كنا نردد مع بدوي الجبل ، امتعه الله بيومه، هذا البيت من الشعر:

خلق الشاعر والبؤس معاً فهما خلان لم يفترقا

وكانت مصر ، والعراق ، ترددان مع حافظ والرصافي رحمها الله مثل هذا او امعن في الالم والشكاية .

ان الشاعر والبؤس لم يفترقا، ولا يقدران على هذه الفرقة، ولكن في التاريخ العربي القديم . اما اليوم فانهما قادران على هذا الافتراق، بل يجب ان يفترقا ولكن ، على غير النحو الذي كان في الماضي ، وهو التقرب والفناء في اصحاب الدولة. فالأديب العربي اليوم قادر على العيش بفضل أدبه ، او بفضل علمه ، فقد اخذ العلم يشيع من بين طبقات الامة ، ولم تعد مقاليد العيش بيد طائفة بعينها ، وانما العيش لكل الناس .

ومهما بلغ بنا التعصب لتاريخنا القديم فاننا لا نستطيع ان ننكر حقيقة هذا المجتمع الذي كان يعيش في ذلك التاريخ . فلقد كان مجتمعا فقيراً جاهلا وان وراء هذا النعيم والترف والعلم الذي نقرأ آثاره في عصور القوة ، كانت مأساة مجتمع يضم عشرات الملايين الذين لا يعلمون علما ، ولا يملكون شيئا . ولا ينقص من هذه الحقيقة ان ادباء العربية في ذلك الوقت لم يعنوا بها ، بله ان يروا ان من واجبهم ان يسعوا الى تبديلها، فهي موجودة على الرغم من التغاضي والاهمال ولا يحتاج الكشف عنها ، الا ان نضم هذه الاشارات العابرة التي تمر نادرا في التاريخ والأدب ، حتى نخلص الى حقيقة هذا المجتمع، ونرى صورته وهي مؤلمة ، فصورة الرشيد وبذخه وصورة المأمون وعلمه ، لا تخفيان صورة المجتمع المزوّية ، والذي يصف ابو العتاهية طرفا منها :

اني ارى الاسعار اسعار الرعية غالية
وارى المكاسب نزرة وارى الضرورة فاشية
وارى غموم الدهر را ئحة تمر وغادية
وارى اليتامى والارامل في البيوت الخالية
يشكون مجهدة بأصوات ضعاف عالية
من للبطون الجائعات وللجسوم العارية

أتراني قسوت على ادباء العربية القدامى ؟

قد يكون هذا ، ولكن في بحث كهذا يحتم الواجب ان نعرض قصة واجبات رجال الدولة نحو الادباء ، في الادب العربي على حقيقتها ، ونعرضها وحدها دون الالتفات الى ما عداها من الجوانب الحلوة الزاهية عند اولئك الشعراء ، ولا نستطيع التغاضي عن هذا الواجب لاننا نحن الادباء لا نزال نتأثر ، ونحن نقرأ الادب القديم ، ونتثقف به ، في حكايات هذه الصلات ، ولا يزال الواحد منا يسيل لعابه ، وتتفتح احلامه وهو يقرأ احاديث الاعطيات والمنح التي كان يأخذها الادباء ، وننسى في غمرة الشوق وما تبرقش الاحلام ، الثمن الذي كان يدفعه هؤلاء الادباء .

ان ادباء العربية اليوم ، لا يقبلون بمثل هذه الواجبات ، ولا يقبلون ان تقوم الصلة بينهم وبين اية طائفة من الناس

على النحو الذي كانت عليه هذه الصلة في المـــاضي القريب او البعيـــد . انهم يقولون للدولة ،لكل دولة ، ليس لنا عليك من واجب ، وليس لك عندنا من حق غير هذه الحقوق والواجبات التي تنتظم المواطنين جميعاً .

ان مأساة ادبنا القديم ، ومأساة ادبائنا القدامى ، لا تزال ماثلة امام انظارنا ومتمثلة في نفوسنا . فلقد فقدوا استقلالهم الفكري ، وفقد البعض منهم كرامته كانسان،فكم واحدمنهم سحب من مجلس ، على شكل اثار ضحك وسخرية الحاضرين ، وكم واحـد رمي به في المـــاء للفرجة والتندر ، وكم واحد ضُرب ، وشُجّ جبينه ، ليتغنى بعد ذلك .

ان كان سركم ماقال حاسدنا فما لجرح اذا ارضاكم ألـم

كان يُصنع بهم هذا ، وكان يصنع بهم اكثر من هذا ،ولا يغطي على هذه الحقيقة ما كان يتغنى به الشاعر في مدح نفسه ، والثناء على آبائه وانه اذا سيم الخسف أبى ، فقـد كان يسام الخسف ولا يتأبى عليه ، ولا احسب ان فخر الشاعر بنفسه الا من اثر هذا الشعور الذي كشف عنه العلم الحديث ، وهو الشعور بالنقص ، فقد كان يشعر بهوان نفسه ، وهو يريق ماء وجهه ، ليعطى وليجزل له في العطاء .

ان البيوت العربية القديمة ، تقـــاسمت الشعراء ، وكانت تباهي وتلهو بهم كما تباهي بما تقتني من متـــاع ورياش. واذا وصل الامر الى هذا الحد ،وقد وصل،فقد هانت رسالةالادب على صاحبها ، ويا شد ما هانت هذه الرسالة وضاعت في ابواب الشعر الخمسة ...

وصحيح اليوم ان رجـال الجاه والسلطان لا يضربون الادباء ، وان الادباء انفسهـم لا يقبلون بشيء مـن هذا ولا يحتملونه . وإن الامور قد تغيرت ، وابسط مظاهر هـــذا التغير هذا الشعور الذي يمتلىء به ضمير كل انسان، وهو ان الكل امام النظام سواء ، لا ميـزة لاحـــد عـــلى احد . ولكن الخطر على الادب من قيام هذه الواجبات كرة اخرى هو هو ، فقد يحمل الادباء نتيجة لهذه الواجبات على مراكب صعبة يهون الضرب والرمي في الماء عندها ، فقد يطلب اليهم ، وقد يصنعون ،ان يحموا باطلاً وينفوا حقاً .

وكلنا يعرف الخطورة التي تجيء من الادباء اذا انحرفوا فقد يغررون بالجيل وينحرفون به عن الطريـق الصحيح ، بما يملكون من اداة رهيبة ، فهم اللسان ، وهم البيان والتعبير وكفى . واذن أليس لنا عند الدولة من حق ؟!

نعم ، ليس لنا عندها من حق ، غير الحق الذي تحققه نحن والواجب الذي نأخذه شاءتام ابت وهو الحرية.والاستقلال الفكـــري .

الحرية في ان نقول ما نشاء ، وان ندعو الى الرأي الذي نرى ، مستقلين غير متأثرين إلا بما نعتقد انه الحق ، وليست هذه فوضى ، فان اول ما يعرفه الاديب الحق ان حريتـــه ليست مناهضة لخير المجتمع وأمنه،وانما هي لخير المجتمع وأمنه.

واذا ابت الدولة بعد ذلك الا ان تساعدالادب لاالاديب فلها ان تفعل ذلك وتقوم به كما تقوم بأي عمل اجتماعي آخـر لا تطالب ولا ينبغي لها ان تطالب حتى بالشكر لان هـــذا واجبها ، والسبب في وجودها .

وكما يشير الناس على حكوماتهم ، فيما ينبغي ان تصنـــع لخدمة المجموع واي المناحي هي التي تفتقر الى الخدمـــة ، وتحتاج الى المساعدة ، فكذلك يجوز للادباء ان يشيروا عـلى هذه الحكومات ، ويدلوها على الانحاء الادبية ، التي تحتاج الى العون ،على ان يكونوا يقظين حذرين في ان لا تمس هذه حرية الاديب واستقلاله ، من بعيد او قريب ، وان تقتصر على مساعدة الادب فحسب دونما قصد او غاية غيرالقصد النبيل والغاية الكريمة وهي تدعيم الحركات الادبية، وتوثيق اركانها. ولست اغالي اذا قلت ان هذا التدعيم والتوثيق لا يتأتيان الا اذا اعنا الادب العربي على هذه الحرية وهذا الاستقلال ، فلا تزال هنالك احلام من الماضي ، تنسل الى خيـــال الاديب العربي فتصور له من جملة ما تصور ان الحياة روضة وجدول يتغنى حالماً في ظلالها ، وعلى الناس بعد ذلك ان يعينوه على العيش . ولا بأس اذا ما ذكر هؤلاء بالخير بل هو لا بـــد ذاكرهم ، فمن الجحود ان لا يذكرهم .... ، واذن فقـــد قاربت ان تتكرر مهزلة الادب القديم ثانية ..

بقي علينا ان نبحث في الشق الثاني وهو :

واجب الاديب نحو المجتمع العربي

واشكر الجماعة القائمة على امر هذا المؤتمر والتي وضعت هذا الموضوع ، فقصرت الواجب على الاديب العربي ، نحـو مجتمعه العربي ، ولم ترسله على اطلاقه ، بحيث تجعله عاما ،وهو واجب كل اديب نحو مجتمعه. فما لا شك فيه ان وضع الأديب العربي ، يختلف عن وضع غيره من الادباء ، بقدر اختلاف المجتمع العربي عن غيره من هذه المجتمعات لاسيما التي استقرت منها.

ونحن هنا لا نستطيع ان نحدد هذا الواجب ، قبل ان نلقي شيئاً من الضوء على المجتمع العربي ، الذي يطالب ابناؤه - ومنهم الادباء - بضروب من الواجبات .

ان المجتمع العربي ، على اختلاف دياره ، وتباين اقطاره قد اخذ يعنف ويشتد في هذه الفترة الحاضرة من تاريخه ، في حركة تطوره التي بدأها في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. ولقد تركزت هذه الحركة، في بادىء امرها، بالتخلص من الحكم الأجنبي ، وان تسلم البلاد العربية الى ذويها ، ليكونوا فيها السادة الحاكمين .

وشارك الادباء في ذلك ، وحث الشعراء الناس ، على المضي قدما في تحقيق هذه الغاية ، وقيلت القصائد التي الهبت شعور المواطنين ، والتي ما زلنا نتغنى بها حتى اليوم ، بل اكثر من ذلك كان الناس ، تحت حميا هذه العواطف اللاهبة ، يدخلون في حساب تقدير الادباء والشعراء ، هذا الحس والشعور ، فيعظم الاديب والشاعر بمقدار ما يثير الناس ، ويلهب عواطفهم ويغض من قدر انتاجه الفني ، اذا لم يستطع المشاركة في ارواءهذهالعواطف،او كانت مشاركته فيهافاترة .

وآتت هذه الحركة ثمراتها الطيبة ، فاستقل الكثير من الاقطار العربية ، وصحت البقية منها لتطالب بهذا الاستقلال ، واخذ الاستعمار يلفظ انفاسه فيما تبقى له من اركان في دنيا العرب الواسعة .

ولكن الاستقلال مطلب من المطالب ، وغاية من الغايات ، وليس هو في حياة الامم كل المطالب والغايات . فقد انزاح على اثره وبفضله ما كان يعترض النهضة العربية من سدود ، فتدفق العلم بعد ما كان حبيساً ، واضطرمت النهضة بمختلف صورها والوانها ، على مدى واسع لم يكن العرب انفسهم يظنون انهم بالغوه في هذا المدى القليل من الزمن ، وقد كانوا يرون بالامس وهم يتنزون بالقيود كيف يعطى اليهم العلم قطرة قطرة ، لم تكن تخلص من الكدر ، وكيف كانت تحبو نهضتهم حبواً تتعثر معه عند كل خطوة ، فتعقدت لذلك مشاكل المجتمع العربي تبعا لهذا التقدم والارتقاء ، كل هذا التعقيد الذي نراه .

فبعد ان كانت مشكلته القائمة ، هي التخلص من الحكم الاجنبي فحسب ، اصبحت له جملة مشاكل عديدة ومعقدة ، فمنها ما هو في الاقتصاد ومنها ما هو في السياسة ومنها ما هو في هذه المذاهب الاجتماعية القائمة في الدنيا ، الى آخر هذه المشاكل التي تقوم وتثبت في المجتمع المتحضر او الذي بدأ يتحضر ، ان كان لمشاكل هذه المجتمعات ، من آخر .

وما زال الاديب عند الناس كما كان ارفعهم صوتاً ، واقواهم تأثيراً ، فهو لهذا مطالب بأن يساهم في هذه المشاكل ، والدعوة الى حلها ، على الشكل الذي يتصور كل فريق في المجتمع أنه الاقوم والامثل .

وكما تشتد حركة تطور المجتمع العربي ، في متنوع صورها ومظاهرها ، فهي هنا تشتد على الادباء وتعنف ، فلا تزال تدعو الادباء ، وتلح في الدعوة ، في ان يشاركوا كما يشارك غيرهم من المواطنين في الدعوة الى حل هذه المشاكل القائمة .

ولكن اية دعوى يشارك الاديب فيها ?? هذه هي المسألة كما يقولون .

ان المشكلة الواحدة، وما اكثر مشاكل العالم العربي اليوم، لتتعدد الافكار - كما نرى - وتتضارب الآراء - كما نشاهد - في تحديدها ، وفي طريقة معالجتها ، فأي رأى يأخذ الاديب واي طريق يسلك ؟

ولقائل أن يقول ، ليأخذ الرأي الذي يعتقدانه الاصوب ، وليسلك الطريق التي يرى انها تفضي به الى الصواب ، وتفضي معه بالامة ، الى رحاب الخير ، ودنيا العزة والمنعة ومع ان الاديب سيسلك هذه ، ويأخذ بذلك الرأي ، ولكن قبل ان يفعل هذا ، يقف ليرى ان ما يفعله هنا ، هو مشكلة أخرى ، فان حركة التطور العربي في عنفها واشتدادها لا تعرف اللين والرفق ، فهي عنيفة على نفسها، عنيفة على الاخرين ، فالانسان الذي لا يرى رأي طائفة من الناس ليس هو كما في المجتمعات التي استقرت مخالفة لرأي الطائفة الاخرى ، له اجره ان اصاب او اخطأ بل هو في المجتمع العربي ، باصرح عبارة ، واوضح لغة ، خائن عند الفريق الذي لا يشايعه في الرأي والهوى .

اليس هذا واقع العالم العربي ، او واقع ادباء العربية اليوم? اليس الاديب عند اهل اليمين ، اذا رأى رأي اهل اليسار، اقل صفاته الخيانة ? اوليس هو عند اهل اليسار اذا لم ير رأيهم، ويأخذ بقولهم شراً من هذا? واين يقف?? أفي المنتصف?? اذن فهو ، عند الطائفتين ، اهل لان ينعت بارذل الصفات .

وليست الدنيا يساراً او يميناً ، وانما لها جهات اصلية اربع ومثلها فرعيّة ، وبينها ما شئت من جهات اخرى ، وهذا هو الاديب عند كل مشكلة ، وفي كل جهة ، هو خائن أو شر عند كل فريق لا يأخذ برأيه ، ولا يرى الامر بعينه ، ولا

يقف وهو راغم في الجهة التي يقف عندها . **ومن تحصيل الحاصل بعد ذلك ، ان مشايعة الرأي والهوى اوشكت او هي على وشك ان تصبح القاعدة التي يرجع اليها ، في تقدير الادب ، وتقدير قيم الادباء ، حتى اصبح ادباؤنا الكبار ، يخشون ان يناموا فيصبحوا ذات ليلة ، واذا هم غير كبار ، لا لعلة الا ان اناساً قد بحثوا في ادبهم ، واطالوا البحث ، فعثروا من جملة ما عثروا عليه على رأي لا يرتأون ، ومذهب في الحياة والاجتماع والادب الخالص ، لا يذهبون اليه .**

اننا نريد لحركة نهضتنا وتطورنا ان تشتد ما وسعتها الشدة . لنلحق بالناس الذين سبقونا في مضمار الحضارة ، والزمن الحديث لا يحتمل التلكؤ والابطاء ، ولكننا لا نريد لها ، ان تفقد في هذه الحركة اتزانها ، بل نحن نسعى ما وسعنا السعي — لتجنبها ذلك ، مهما اتهمنا ومهما اوذينا في كرامتنا ، فالخطر الذي ينجم من وراء ذلك بالغ الخطورة لا يقتصر امره على الادب ، وانما يتعداه الى الحركة ذاتها ، فقد تصاب بنكسة او تنحرف عن طريقها الصحيح ، فقد عانى كل مجتمع في فترة من تاريخه ، شبيهة بهذه الفترة من تاريخنا ما نعانيه نحن اليوم من بلبلة واضطراب ، ولكن هذه البلبلة لم تكن لتفقده صحة الحكم ، وان يقيس الامور بمقياسها الصحيح ، فلم يتهم فريق فريقاً بالخيانة والمروق ، لمجرد ان هواه لم يطابق هواه ، وان رأيه لم يجيء وفاق رأيه .

ففي حركات البعث والتحرير في الغرب ، التي نقرأ آثارها ، الى يومنا هذا ، ونستمتع بها ، لم تكن طوائف الامة ، تقدر هذا الادب ، بمقياس المشايعة بالرأي والهوى وانما تقيسه بالمقاييس الفنية الصحيحة ، وليس من هذه المقاييس المشايعة بالرأي والهوى كما نصنع نحن مع ادبائنا .

واذا كان ادباء العربية لا يرون ان لهم واجبا في ذمة الدولة ، حرصا على استقلالهم وضمانا لحريتهم ، فهم حراص — كهذا الحرص او اشد — ان لا تدعي فئة من فئات الامة ان لها عليها حقاً في التوجيه ، فليس هذا باقل خطر على الادب من ذلك وليشتد كل فريق بعد هذا على الاديب الذي يخالفه بالرأي كما يحلو له ، لن يثني ذلك الادباء عن تحقيق حريتهم كاملة ، ولن يعود بهم الى الوراء ليمالئوا على حساب هذه الحرية ، وعلى حساب كرامتهم واستقلالهم .

واذا ما فرغنا من هذا ، واصبح واضحاً لدى الناس ، فلنا ان نقرر لهم ما يشعر به الاديب العربي ، نحو مجتمعه ، في هذه الفترة التاريخية المميزة في تاريخه .

فالاديب مواطن كغيره من المواطنين ، وكما يحس هؤلاء المواطنون ، بمشاكل مجتمعهم يحس هو بها ، بل ان احساسه فيها لأعمق ، فهو رضي ام كره ، يشارك فيها ويصورها ويتلمس الحلول لها ، يفعل ذلك ، لا لان فريقا من الناس اراد له ذلك ، وانما لأن هذه المشاكل مشاكله الخاصة ، وهي بعد من الوفرة والكثرة والتعقيد بحيث تطالعه عند كل نظرة في احوال مجتمعه .

وهو يفضي بعد ذلك ، بالرأي الذي يراه الصواب والحق لا يخشى في سبيله ، قالة سوء ويا ماهونها ولا مكروهاً يصيبه ويا شدّ ما تحمل الاديب مثله .

ان الحق هو مطلب الاديب الحق ..

ولسنا نغالىء احداً ، اذا قلنا ان النظر في مشاكل العالم العربي ، جزء من رسالة كل اديب عربي ، لان هذه المشاكل والمتاعب تتطلب لضخامتها ووفرتها عون كل مواطن وجهده والا فليس من المستغرب ولا من المستبعد ، ان تحطم كيان المجتمع العربي ، وتأتي عليه . بل ان بعض هذه المشاكل — ولا اقول كلها — يستهدف هذا التحطيم والقضاء على هذا المجتمع ، وهو شيء لم يتعرض لمثله مجتمع من المجتمعات لا في قديم التاريخ ولا في حديثه ، فان غاية الغزوة في القديم ، وغاية الحرب في الحديث نهب المجتمع المغلوب والسيطرة عليه ، اما هي في المجتمع العربي اليوم ، فاكثر من ذلك ، انها اجلاء وافناء .

وعلى هذا فان الزام الاديب العربي بهذا الواجب ، لا يتنافى البتة مع حريته ، ويجب ان لا يرى الاديب شيئاً من هذا . فهو لا يستطيع كأنسان في مجتمع مهدد في كيانه ، ان ينعزل عن شؤون هذا المجتمع ، ليقول ان الامر لا يعنيني ، انه يعنيه ويعني ابناءه وذراريه هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ مجتمعه ، وان اول شرط لنجاح حركة تطور هذا المجتمع ان لا يكون مفكك الاراء ، مختلف الاهواء ، كل فريق ينزع الى هدف ويرمي الى غاية ، وليس هنالك من هم اقدر من الادباء على لمّ هذه النوازع وضم هذه الاهداف الى هدف واحد ، لتنطلق الامة اليه وحدة متماسكة .

وكما ساعد الادباء في مطلع نهضتنا على تركيز الهدف ، وهو اجلاء الغاصب فعليهم الان ان يشاركوا في تركيز الهدف ثانية وجمع الاراء والعزائم حوله .

واذا ما فرغ ادباء العرب من القيام بهذا الواجب الذي

لا بد من القيام به والذي تحتمه الفترة التاريخية ، كان لهم بعد ذلك اذا رغبوا – وهم راغبون – ان ينصرفوا الى اعمالهم الادبية الخالصة ، فلهم ان ينظموا القصيد للقصيد وان يكتبوا القصة للقصة ، والمقالة للفكرة ، لا يهدفون الى غير ارضاء نوازعهم الفنية ولا يجوز ان يتصل نقد هذه الاثار بحديث النضال وقصة الكفاح ، فما كان ادب امة من الامم وقفاً على هذا الحديث وهذه القصة .

لقد شارك ادباء اليونان وادباء الرومان في القديم في حديث السياسة وحديث كفاح شعوبهم ولكنهم وضعوا بعد ذلك للاجيال الادب الذي ما زلنا نعيش عليه ، وهو لا يقارب حديث السياسة والكفاح .

وصنع مثلهم ادباء الغرب في فجر نهضاته الحديثة ، هذه النهضات التي كان يجيء الادباء في طلائعها روّاداً وقادة ، ولم تكن هذه الريادة والقيادة تجور على رسالة الادب الشاملة ، التي مهما اختلفنا في تحديدها فلا نختلف في ان منها ومن معناها تصوير الحياة والكشف عن حقائقها وتزيينها والعمل على ان تكون الطف واجمل . وهو معنى تشترك فيه جميع الفنون الرفيعة ، فاذا ما قصرنا هذا كله على ناحية واحدة من نواحي الحياة فقد ظلمنا الادب والادباء كثيراً ، وحملناهم ما لا يطيقون ولو كانت هذه الناحية كفاح شعب ونضال امة .

ان المجتمع العربي يضغط على ادبائه ، وليس اخطر على الادب من الاستجابة لهذا الضغط . فلا شيء اقتل للأدب من ان يصب في قالب واحد ليأتي على شكل بعينه فكأننا بهذا العمل قد الغينا جميع هذه المشاعر التي تزخر بها النفس الانسانية والتي لا حصر لها ولا حدّ لنقيم بدلاً منها شعوراً واحداً . ان هذا كذب على الواقع وتدليس على النفس الانسانية ، ولن يأتي معه في النهاية ادب حق ...

والادب الحق هو ما يحتاج اليه الادب العربي ليجدد شبابه ، وليمشي صعداً ليتبوأ هذه المنازل الرفيعة التي استوت عليها الاداب العالمية من قبل ...

*

والان وبعد هذا الذي ذكرنا نعود الى السؤال الذي يتردد على السنة المشتغلين في القضايا العربية ، وهو هل قام الادباء في حدود ما رسمنا بواجباتهم نحو المجتمع العربي ؟

نظلم الادباء اذا قلنا انهم لم يقوموا بهذا الواجب ونظلم المجتمع العربي اذا قلنا انهم قاموا به على اتمه . ولأمثل على هذا بمثل واحد وهو نكبة فلسطين – .. نزعم نحن العرب اننا اكثرنا القول فيها وان هذا القول يجب ان يتجسد بعد الان عملاً . والواقع اننا لم نقل شيئاً بعد ، اولم يقل ادباؤنا – على ما قاله البعض منهم – شيئاً بعد ، فلم تنعقد حول هذه النكبة القصة الخالدة او الملحمة التي تمشي مع الخلود تحفز وتستثير الاجيال التي في ضمير الغيب . وقبل ان يقول ادباؤنا وشعراؤنا هذا واشباهه فلا يحق لهم ان يدّعوا قولاً او يزعموا مشاركة .

وهذا هو شأنهم في كل مشكلة عربية قائمة .

وان هذا هو ما تريده الاجيال العربية الحاضرة منهم ، ومن اجل هذا تكاد في غمرة الاحداث ان تتنقص من اقدارهم وهي الكبيرة .

وقد يكون لادبائنا الكبار اعذارهم في هذا التخلف ، ولكنها اعذار لا تصمد الى منطق الجماعات التي ترى ان ظروف الامة القاسية تحتم جمع كافة القوى وحشد جميع الامكانيات .

واحسب ان ادباءنا الكبار قد مالت بهم السن الى الحياة الوادعة ، بعد ان عاشوا حياة الكفاح في شبابهم ، فهم يرون ان ناشئة الادباء اقدر واقمن بان تعيش الحياة التي سبق وعاشوها ، وان تؤدي القسط المحتوم من الواجب الذي ادوه هم ، فهم على هذا الحسبان قد ملّوا حياة المنافحة وجنحوا الى هذا الادب الخالص يطلعوننا على كنوزه ودرره . وهي كنوز غالية ، ودرر ثمينة ، ولكنها لا تغني عن مشاركتهم في قضايا العروبة .

ان ادباء الشباب يقومون بالمشاركة المطلوبة ، ولكن قواهم الادبية محدودة ، وتأثيرهم غير بالغ . واين هي من قوى وتأثير هؤلاء الادباء الكبار الذين اصبحت حياة البعض منهم اشبه بالاسطورة ؟

واذا وضح هذا ، فقد وضح معه ان مشاركتهم حتمية تجيء مع الحق والواجب ومنطق الجماعات العربية ، وان لا شيء يسد مسدها او يغني غناءها .

فهل هم بعد ، ذاكرون هذا الحق والواجب والمنطق ؟

ان عليهم ان يذكروه ، وان على العالم العربي ان يذكرهم به كل وقت . ولا ملامة اذا جاء هذا التذكير عنيفاً بعض الحين .

عبد الحليم عباس
عن ادباء الاردن